من أقاصيص الأولين

عرض : د. محمد أحمد خلف الله

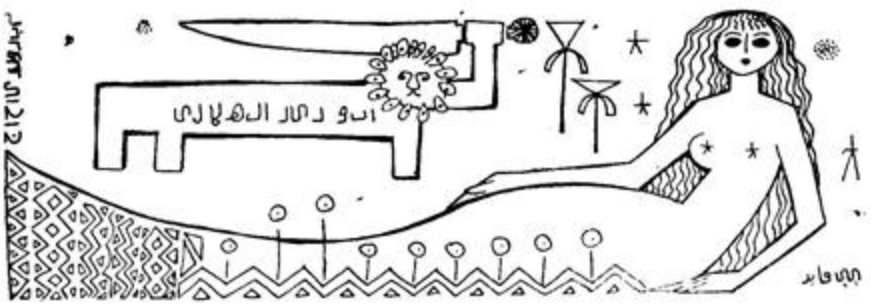

●● حدث أبو دلامة قال :

أتى بى المنصور وأنا سكران ، فحلف ليخرجنى فى بعث حرب ، فأخرجنى مع روح بن حاتم المهلبى لقتال الشراه ـ الخوارج ـ .

ولما التقى الجمعان قلت لروح : ـ أما والله لو أن تحتى فرسك ومعى سلاحك لأثرت فى عدوك اليوم الذى ترتضيه .

فضحك وقال : ـ والله العظيم لأدفعن ذلك اليك ، ولآخذنك بالوفاء بشرطك . ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما الى ، ودعا بغيرهما فاستبدل به .

فلما حصل ذلك فى يدى وزالت عنى حلاوة الطمع ، قلت له : ـ أيها الأمير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت بيتين فاسمعهما .

قال : ـ هات

فأنشدته :

انى استجرتك ان اقدم فى الوغى ... لتطاعن وتنازل وضراب

فهب السيوف رأيتها مشهورة ... فتركتها ومضيت فى الهراب

ماذا تقول لما يجىء وما يرى ... من واردات الموت فى النشاب

فقال : ـ دع عنك هذا وستعلم .

وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة ، فقال : ـ أخرج اليه يا أبا دلامة .

فقلت : ـ أنشدك الله أيها الأمير فى دمى .

قال : ـ والله لتخرجن .

فقلت : ـ أيها الأمير فانه أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وانا والله جائع ما شبعت منى جارحة من الجوع ، فمر لى بشىء آكله ثم أخرج .

فأمر لى برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف .

فلما رآنى الشارى ـ الخارجى ـ اقبل نحوى عليه فرو وقد اصابه المطر فابتل ، واصابته الشمس فانغل ـ تقبض ـ . وعيناه تقدان ، فاسرع الى .

فقلت له : ـ على رسلك يا هذا ، كما انت .

فوقف .

فقلت : ـ اتقتل من لا يقاتلك ؟ .

قال : ـ لا .

قلت : ـ اتقتل رجلا على دينك ؟ .

قال : ـ لا .

قلت : ـ افتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقاتله الى دينك ؟ .

قال : ـ لا ، فاذهب عنى الى لعنة الله .

قلت : ـ لا افعل أو تسمع منى .

قال : ـ قـــل .

قلت : ـ هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة ، أو تعرفنى بحال تحفظك على ، أو تعلم بين اهلى واهلك وترا ؟ .

قال : ـ لا والله .

قلت : ـ ولا انا والله ، وما احمل لك الا جميل الراى ، وانى لاهواك وانتحل مذهبك وادين دينك وأريد السوء لمن اراده لك .

قال : ـ يا هـــذا جزاك الله خيرا فانصرف .

قلت : ـ ان معى زادا أحب أن آكله معك ، وأحب مواكلتك لتتوكد المودة بيننا ، ويرى اهـــل العسكر هوانهم علينا .

قال : ـ فافعـــل .

فتقدمت اليه حتى اختلفت أعناق دوابنا وجمعنا ارجلنا على معارفها والناس قد غلبوا ضحكا . فلما استوفينا ودعنى .

ثم قلت له : ـ ان هـــذا الجاهل ان اقمت على طلب المبارزة ندبنى اليك فتتعبنى وتتعب . فان رايت الا تبرز اليوم فافعل .

قال : ـ قد فعلت .

ثم انصرف وانصرفت .

وقلت لروح : ـ اما انا فقد كفيتك قرنى فقل لغيرى ان يكفيك قرنه كما كفيتك ، فامسك .

وخرج آخر يدعو الى البراز ، فقال لى : ـ اخرج .

فقلت : ـ

انى أعـــوذ بروح أن يقـــدمنى ... الى البراز فتخزى بى بنو اســـد
ان البـراز الى الأقـــران اعلمـــه ... مما يفرق بين الـــروح والجســـد
قد حالفتك المنـايا اذ صمدت لهـــا ... واصبحت لجميع الخلق بالرصـــد
ان المهلب حب المـــوت أورثـــكم ... وما ورثت اختيـار الموت عن احـــد
لو أن لى مهجـــة اخرى لجدت بهـــا ... لـــكنها خلقت فـــردا فـلم اجـــد

فضحك واعفانى .

●● جاء ابن ابى دلامة يوما الى ابيه وهو فى محفل من جيرانه وعشيرته جالس ، فجلس بين يديه ، ثم اقبل على الجماعة فقال لهم : ـ

ان شيخى كما ترون ، قد كبرت سنه ، ورق جلده ، ودق عظمه ، وبنا الى حياتهحاجة شديدة ، فلا ازال اشير عليه بالشيء يمسك رمقه ويبقى قوته ، فيخالفنى فيه . وانا اسالكم ان تسالوه قضاء حاجة لى اذكرها بحضرتكم ، فيها صلاح لجسمه ، وبقاء لحياته ، فاسعفونى بمسالته .

فقالوا : نفعل حبا وكرامة .

ثم اقبلوا على ابى دلامة بالسنتهم وتناولوه بالعتاب حتى رضى وهو ساكت .

فقال : ـ قولوا للخبيث فليقل ما يريد ، فستعلمون انه لم يأت الا ببلية .
فقالوا له : ـ قل .
فقال : ـ ان أبى انما يقتله كثرة الجماع ، فتعاونوا عليه حتى اخصيه ، فلن يقطعه عن ذلك غير ذلك ، فيكون أصح لجسمه واطول لعمره .

فعجبوا من ذلك وعلموا انه انما أراد أن يعبث بأبيه ويخجله حتى يشيع ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر ، ففضحكوا منه.

ثم قالوا لأبى دلامة : ـ قد سمعت فاجب .
قال : ـ قد سمعتم انتم وعرفتكم انه لن يأتى بخير .
قالوا : ـ فما عندك فى هذا ؟ .
قال : ـ قد جعلت أمه حكما بينى وبينه فقوموا بنا اليها .
فقاموا باجمعهم فدخلوا اليها ، وقص أبو دلامة القصة عليها ، وقال لها : ـ قد حكمتك .
فاقبلت على الجماعة فقالت : ـ ان ابنى ـ أصلحه الله ـ قد نصح اباه وبره ولم يال جهدا ، وما أنا الى بقاء أبيه بأحوج منى الى بقائه ، وهذا امر لم تقع به تجربة منا ، ولا جرت بمثله عادة لنا ، وما أشك فى معرفته بذلك . فليبدأ بنفسه ، فاذا عوفى ورأينا ذلك قد أثر عليه أثرا محمودا استعمله أبوه .

فنعر أبوه وجعل يضحك به ، وخجل ابنه ، وانصرف القوم يضحكون ويعجبون من خبثهم جميعا واتفاقهم فى ذلك المذهب .

●● أقبل صرم من جرم ساقته السنة والجدب من بلاده الى بلاد بنى قشير ، وكان بينهم وبين بنى قشير حرب عظيمة ، فلم يجدوا بدا من رمى قشير بانفسهم لما قد سألفهم من الجدب والمجاعة ودقة الأموال وما اشرفوا عليه من الهلكة . ووقع الربيع فى بلاد بنى قشير ، فنصبت قشير لهم الحرب .

فقالت جرم : ـ انما جئنا مستجيرين غير محاربين .
قالوا : ـ مماذا ؟
قالوا : ـ من السنة والجدب والهلكة التى لا باقية لها .

فاجارتهم قشير وسالمتهم وارعتهم طرفا من بلادها .
وكان فى جرم فتى يقال له ميـــاد ، وكان غزلا حسن الوجه ، تام القامة ، آخذا بقلوب النساء . والغزل فى جرم جائز حسن ، وهو فى قشير مكروه .

فلما نازلت جرم قشيرا وجاورتها أصبح مياد الجرمى فغدا الى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث ، واستبراز الفتيات عند غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى والرعية وما اشبه ذلك ، فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره . وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات .

فقال عجائز منهن : ـ والله ما ندرى أرعيتم جرما المرعى أم ارعيتموهم نساءكم ؟ .
فاشتد ذلك عليهم فقالوا : ـ وما أدراكنه ؟ .
فلن : ـ رجل منذ اليوم ظل مجحرا لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا .
فقال بعضهم : ـ بيتوا جرما فاستأصلوها .

وقال بعضهم : ـ قبيح . قوم قد سقيتموهم ميـــاهكم ، وأرعيتموهم مراعيـــكم ، وخلطتموهم بانفسكم ، وأجرتموهم من القحط والسنة ، تفتاتون عليهم هذا الافتيات ، لا تفعلوا . ولكن تصبحوا وتقدموا الى هؤلاء القوم فى هـــذا الرجل ، فانه سفيه من سفهائهم فليأخذوا على يديه . فان يفعلوا فاتموا لهم احسانكم ، وان يمتنعوا ويقروا ما كان منه يحل لـكم البسط عليهم وتخرجـوا من ذمتهم ، فاجمعوا على ذلك .

فلما أصبحوا غدا نفر منهم على جرم فقالوا : ـ ما هذه البدعة التى قد جاورتمونا بها ؟ ان كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا ارعاء ولا اسقاء ، فبرزوا عنا انفسكم وآذنوا بحرب ، وان كان افتتانا فغيروا على من فعله .

وانهم لم يعدوا ان قالوا لجرم ذلك .

فقال رجال من جرم وقالوا : ـ ما هذا الذى نالكم ؟ .

قالوا : ـ رجل منكم امس ظل يجر اذياله بين ابياتنا ما ندرى علام كان امره ؟ .

فقهقهت جرم من جفـاء القشيرين وعجرفتها ، وقالوا : ـ انكم لتحسون من نسـائكم ببلاء ، الا فابعثوا الى بيوتنا رجلا ورجلا .

فقالوا : ـ والله ما نحس من نسـائنا ببلاء ، وما نعرف منهن الا العفة والكرم ، ولكن فيكم الذى فلتم .

قالوا : ـ فانا نبعث رجلا الى بيوتكم يا بنى قشير اذا غدت الرجال واخلف النساء ، وتبعثون رجلا الى البيوت ، ونتحالف انه لا يتقدم رجل منـا الى زوجة ولا اخت ولا بنت ولا يعلمها بشىء مما دار بين القوم ، فيظل كلاهما فى بيوت اصحابه حتى يردا علينا عشيا الماء وتخلى لهما البيوت ، ولا تبرز امراة ولا تصـادق منهما واحدا فيقبل منهما صرف ولا عـدل الا بموثق ياخذه عليها وعلامة تكون معه منها .

قالوا : ـ اللهم نعم .

فظلوا يومهم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى اذا كان من الغد غـدوا الى الماء وتحالفوا انه لا يعود الى البيوت منهم احد دون الليل .

غدا ميعاد الجرمى الى القشيريات . وغدا يزيد بن الطثرية القشيرى الى الجرميات ـ وقد كان من احسن من مضى وجها واطيبه حديثا .

ظل يزيد عندهن باكرم مظل لا يصير الى واحـدة منهن الا افتتنت به وتابعته الى المودة والاخاء وقبض منها رهنـا وسالته الا يدخل من بيوت جرم الا بيتهـا ، فيقول لها : ـ واى شىء تخافين وقد اخذت منى المواثيق العهود ليس لاحد فى قلبى نصيب غيرك ، حتى صليت العصر . فانصرف يزيد بامشاط واساور وبراقع . وانصرف مكحولا مدهونا شبعان ريان مرجل اللمة .

وظل مياد الجرمى يدور بين بيوت القشيريات مرجوما مقصى لا يتقرب الى بيت الا استقبلته الولائد بالجندل فتهالك لهن وظن انه ارتيـاد منهن له ، حتى اخذه ضرب كثير بالجندل ورأى البأس منهن وجهده العطش ، فانصرف حتى جاء الى سمرة قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ونام تحتها نومة حتى افرجت عنه الظهيرة وقامت الأظلال وسكن بعض ما به من الم الضرب وبرد عطشه قليلا ، ثم قرب الى الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد امة تلود غنما فى بعض الظعن ، فاخذ برقعها فقال : ـ هذا برقع واحدة من نسائكم ، فطرحه بين يدى القوم ، وجاءت الأمة تعدو فتعلقت ببرقعها فرد عليها وخجل مياد خجلا شديدا .

وجاء يزيد ممسيا وقد كاد القوم ان يتفرقوا ، فنثر كمـه بين ايديهم ملآن براقع وامشـاط وأساور ، وقد حلف القوم الا يعرف رجل شيئا الا رفعة .

فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم وامسكوا بايديهم امساكه .

فقالت قشير : ـ انتم تعرفون ما كان بيننا امس من العهود والمواثيق وتحرج الأموال والأهل ، فمن شاء ان ينصرف الى حرام فليمسك يده .

فبسط كل رجل يده الى ما عرف فاخذه . وتفرقوا عن حرب .

وقالوا : ـ هذه مكيدة يا قشير .

فقال فى ذلك يزيد بن الطثرية .

فان شئت يا ميـاد زرنا وزرتم ... ولم ننفس الدنيـا على من يصيبها
ايذهب ميـاد بالبـاب نسوتى ... ونسـوة ميـاد صحيح قلوبهـا